

المتن

*وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته؟

الشرح

أي: أن الفطرة السليمة أو النفوس المجبولة على الفطر السليمة ؛ تحب الله وتعظمه لكماله ، إذ أنّ المجهول لا يُحِبُّ ولا يُعَظِّمُ، وَمَنْ عُلِمَ نَقْصُهُ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعَظِّمُ؛ فالفطرة - التي هي محبة الله وتعظيمه ؛ مبنية على أصل ؛ وهو علم الإنسان فطرياً بكمال صفات مَنْ يُعْبَدُهُ سبحانه وتعالى.

المتن

وإذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى كالموت والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم ونحوها؛ لقوله تعالى "وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" [الفرقان:58]. وقوله عن موسى "فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" [طه: 52]. وقوله: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ" [فاطر: 44]. وقوله

"أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ" [فاطر: 44]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الدجال "إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور". وقال "أيها الناس ازرعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غابئا" رواه البخاري، كتاب المغازي (4202)، ومسلم، كتاب الذكر: 2704

الشرح

وقوله عن موسى: "فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" [طه: 52]. ففي الجهل والنسيان. وقوله: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ" [فاطر: 44]: ففي العجز.

وقوله: "أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ" [فاطر: 44]: ففي الصمم.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الدجال "إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور" هذا ففي العمى.

المتن

وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" [المائدة: 64] وقوله "لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ

الأنبياء بغير حقٍ وتقول ذوقوا عذاب الحريق" [آل عمران: 181]

وزنه نفسه عما يصفونه به من النقائص، فقال سبحانه "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [الصفات: 180-182]. وقال تعالى "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ" [المؤمنون: 91].

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال، وتقصاً في حال، لم تكن جائزة في حق الله ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تثبت له إثباتاً مطلقاً، ولا تنفى عنه نفياً مطلقاً بل لابد من التفصيل: فتجوز في الحال التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً، وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها. فهذه الصفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها؛ لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، وتكون نقصاً في غير هذه الحال، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها، كقوله تعالى "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [الأنفال: 30] وقوله "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا" [الطارق: 15-16]. وقوله "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ" [الأعراف: 182-183]. وقوله "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ" [النساء: 142]. وقوله "قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ" [البقرة: 14-15].

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه فقال تعالى "وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [الأنفال: 71]. فقال: "فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ"، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهي صفة ذم مطلقاً.

وبهذا عرف أن قول بعض العوام: "خان الله من يخون" منكر فاحش، يجب النهي عنه.

الشرح

بعض الناس يقول: "خان الله من يخون"، أو يقول: يخوتي الله إن كنتُ خُنْتُكَ " ! ؛ هذا لا يجوز ، لأن الخيانة خُدعة في مقام الائتمان؛ والخيانة صفة ذم فلا تجوز على الله. وقد سبق لنا في القاعدة الأولى؛ أن صفات الله تعالى كلها صفات كمال، وأن الصفات من حيث هي صفات: منها صفات كمال على الإطلاق، ومنها صفات نقص على الإطلاق ، ومنها ما يكون نقصاً في حال وكمالاً في حال أخرى، فالذي هو كمالٌ على الإطلاق ثابتٌ لله عز وجل ، والذي هو نقص على الإطلاق يمتنع على الله عز وجل والذي هو كمالٌ في حال دون حال؛ يوصف الله به في حال الكمال دون حال النقص فهذه القاعدة العامة.

طيب ماهو الكمال؟ هل كل كمال في المخلوق؛ كمال في الله؟ وهل كل كمال في الله كمالٌ في المخلوق؟ لا؛ فليس كل كمال في الله كمالاً في المخلوق؛ فمثلاً "التكبر" صفة كمال في الله؛ وفي المخلوق صفة نقص، و"الأكل والشرب والنكاح"؛ صفة كمال للإنسان وصفة نقص بالنسبة لله؛ ولهذا يُزَّه الله عنها. لكن الكمال المطلق غير النسبي؛ ثابتٌ لله على الإطلاق ، والنقص المطلق يُزَّه الله عنه.